المحاضرة الثانية

أسرة قسطنطين (305- 378م)

تتناول المحاضرة العناصر التالية:

- قسطنطين الأول (305- 337م)
- قسطنطيوس/ قنستانز (337- 351م)
- قسطنطيوس منفردا (351-361م)
- جوليان (361-363م)
- جوفيان (8 أشهر)
- فالنز/ فالنتيان (364- 375م)
- فالنز منفردا (حتى 378م)

تمكن قسطنطين في عام 324م من التخلص من منافسيه، والانفراد بالحكم، ولتثبيت دعائم حكمه، عمل على الفور لاتمام البرنامج الإصلاحي الذي بدأه دقلديانوس من قبل، فسار على خطاه في كثير من الأمور التي تضمن استقرار الإمبراطورية، سواء المتعلقة بالادارة، أوحماية الحدود، أوتنظيم الجيوش، وكذلك فصل السلطة المدنية عن العسكرية، إلا أنه قرر عدم خوض تجربة تقسيم الإمبراطورية، فقد كان دقلديانوس يهدف من وراء مشروع التقسيم إلى الحفاظ على الإمبراطورية، وحمايتها من العناصر المغيرة، إلا أن قسطنطين كان له رأي يخالف ذلك، فعلى الرغم من اتفاقه مع الهدف الذي سعى دقلديانوس لتحقيقة، وهو تحقيق الإستقرار للإمبراطورية، إلا أنه عارضه في الوسيلة التي اتخذها، وهي التقسيم، ووضع شركاء له في الحكم، إذ رأى قسطنطين أن وحدة الامبراطورية واستقرارها تتعارض مع وجود أكثر من حاكم، فبعد أن خاض قسطنطين نفسه تجربة الصراع الذي انتهى بانتصاره على المنافسين، ايقن أن وجود امبراطور واحد يعاونه جهاز إداري محكم، وحكومة مركزية قوية، في عاصمة ثابتة تكون مقر اقامة الامبراطور بصفة دائمة، يمكن أن يقوم بتحقيق أهداف دقلديانوس السامية، وفي نفس الوقت يحفظ الامبراطورية من التمزق بين صراع القياصرة وتنافسهم .

واختلفت كذلك سياسة قسطنطين عن دقلديانوس تجاه المسيحية، ولم يكن ذلك في أغلب الظن ناتج عن تدين أو ميل تجاه المسيحيين، ولكنه كان مطلب ضروري لإستقرار الدولة، والحفاظ على الأمن الداخلي، فكان أن أصدر مرسوم ميلان عام 313م، ورد إلى المسيحيين جميع حقوقهم، وأعادهم إلى وظائفهم، وسمح لهم بممارسة الشعائر الدينية، وأعفى رجال الدين المسيحي من الإلتزامات الإجبراية والضرائب، ومنحهم مزايا تعادل تلك التي يحصل عليها كهنة المعابد الوثنية، مما حقق الإستقرار الداخلي للإمبراطورية إلى حد كبير.

وفي نفس العام الذي حقق فيه قسطنطين حلم الإنفراد بالحكم (324م)، أصدر أوامره **ببناء عاصمة جديدة للإمبراطورية (القسطنطينية)**، على موقع قرية بيزنطة القديمة،وانتقل قسطنطين للاستقرار بها فور اتمام البناء.

وقد دار بين المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطي نقاش طويل حول أسباب قرار قسطنطين بترك مدينة روما بتاريخها العريق وحضارتها، والتوجه للاستقرار بالشرق، وعن أسباب اختياره لقرية بيزنطة بالتحديد ليبني عليها العاصمة الجديدة، والحقيقة بالنسبة للتساؤل عن أسباب توجه قسطنطين للشرق، فلا توجد بالمصادر التاريخية حقائق مؤكدة عن هذه الأسباب، وإنما هي مجرد اجتهادات في الرأي من قبل المؤرخين، نذكر هنا خلاصة ما انتهى إليه هؤلاء المؤرخون في عدة أسباب، يمكن أن تكون خلف قرار قسطنطين بترك مدينة روما والتوجه نحو الشرق، واختياره الاستقرار هناك، مع توضيح وجهة النظر الشخصية، وقد خلص المؤرخون إلى أسباب تتعلق بالجوانب السياسية والاقتصادية وكذلك الجوانب العسكرية، وكان أهمها:

- وفرة الامكانيات الاقتصادية المتاحة في الشرق وغناه بالموارد الغذائية التي دائما ما كانت روما في حاجة إليها، وظلت لقرون تعتمد عليها في توفير أسباب المعيشة لسكانها، مثل القمح والزيوت وغيرها من المنتجات الزراعية، وهي الامكانيات التي منحته القدرة على مقاومة الازمات الاقتصادية، التي كان لها دور كبير في انهيار الجانب الغربي، وعاش القسم الشرقي نحو ألف عام بعد سقوط القسم الغربي
- أن روما أصبحت في العقود الأخيرة موطنا للقلاقل والاضطرابات وكثرت بها حركات التمرد، وأصبحت طوال الوقت ساحة للنزاعات السياسية والفوضى، بسبب عودة الجنود للتدخل في الحياة السياسية ومحاولاتهم المستمرة التدخل في اختيار الأباطرة.
- حرص قسطنطين على تقوية جيش الامبراطورية بعدما أصابه من ضعف وانقسام في صفوفه خلال الفترات الأخيرة بسبب النزاع الدائم بين القادة، ورغبته كذلك في تجديد الجيش بامداده بعناصر مختلفة ودماء جديدة من أبناء الشرق الأشداء، وكان هذا الأمر يتطلب انتقاله للشرق للاشراف بنفسه على تدريب الجيش الذي يحمي الامبراطورية، وانتقاء عناصره.
- فإذا أضفنا إلى ذلك ارتباط روما في اذهان المواطنين بقسوة الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون منذ ظهور المسيحية وحتى اعلان مرسوم ميلان، نجد أن اختيار قسطنطين للشرق يعتبر اختيارا منطقيا؛ فقد أراد أن يبدأ عهده بعيدا عن تأثير الوثنية وارتباطها بروما، خاصة وأن أعداد المسيحيين كانت في تزايد مستمر، ولاحظ قسطنطين أن المسيحية انتشرت في الشرق أكثر منها في الغرب، فقرر اتخاذ عاصمة جديدة في الشرق تكون عاصمة ملكه، وعاصمة للمسيحية في نفس الوقت، وربطها بحرية العقيدة والتسامح الديني.

هذا ايجاز لمجمل للآراء والأسباب التي توصل إليها المؤرخون، ومن وجهة نظري، أُضيف إلى هذه الآراء القيمة، اصرار قسطنطين على اتمام خطته التي أعدها جيدا، والتي قامت منذ البداية على أساس التخلص من المنافسين والغاء النظام الرباعي والانفراد بالحكم، والأهم من ذلك جعل حكم الامبراطورية وراثيا بين ابنائه، وهذا التخطيط كان يتطلب الابتعاد عن روما، فالمدينة العريقة التي تتمسك بالمواريث الثقافية القديمة وتتشبث بأحقية مجلس السناتو في اختيار الأباطرة والاشتراك في الحكم (الحكم الثنائي)، لم تكن لتسمح باتمام أهداف قسطنطين بالانفراد بالحكم وجعله وراثيا في نسله، كما أن الطبقة الارستقراطية من المدنيين وقادة الجيش كان لهم القدرة على تحريك الأمور ضد الأباطرة ،وبامكانهم افساد مخطط قسطنطين، ولديهم تطلعات في عودة الحكم الرباعي، لذلك كان على قسطنطين لاتمام خطته التي عزم عليها أن يغادر روما.

ولم يكن قسطنطين يستطيع الافصاح عن نواياه بالتغيير الذي كان يريد القيام به في نظام الحكم، لذلك قرر التوجه لتأسيس عاصمة جديدة في الشرق، يستطيع من خلالها تحقيق أهدافه وتنفيذ مخططه بعيدا عن الطبقة الارستقراطية بشقيها المدني والعسكري، متعللا في أسباب تركه للغرب بضرورة التوجه شرقا لحماية الامبراطورية من الأخطار التي تحيق بها من الجهة الشرقية، لأنها الأكثر خطورة على أمن الامبراطورية وسلامتها، بسبب متاخمتها لدولة الفرس من جهة، ولتوافد العناصر المتبربرة من الجهة الشرقية من جهة أخرى، ولإثبات حسن نواياه؛ أعلن أنه تأسيس روما جديدة في الشرق، تكون مهمتها دعم روما الرئيسية وحمايتها من الجهة الشرقية والحفاظ عليها من الأعداء، وتكون بمثابة الامتداد الشرقي لروما الحقيقية.

أما عن اختيار قسطنطين موقع بيزنطة بالتحديد

فجميع الروايات المعاصرة لقسطنطين والقريبة لعهده تقوم على تفسير الرؤى والمعجزات، فكانت محاولات ربط تأسيس القسطنطينية بالمعجزات التي حدثت لقسطنطين هي محور الكتابات التاريخية القديمة في هذا الموضوع، وجميعها تجعل ارادة الله هي السبب الرئيسي في اختيار موقع العاصمة الجديدة، وتجعل من قنسطنطين مجرد منفذ لارادة الإله.

وجميع الروايات التي دارت حول اختيار القسطنطينية غير مؤكدة على أية حال، فقد انتابها كثير من المبالغات، ومن الجائز أن يكون المؤرخون هم اصحاب المبالغة في سرد الأحداث، وربما يكون قسطنطين نفسه هو المسئول عن ذلك، وانه اتخذ من مشاعر المواطنين، والمسيحيين منهم على وجه الخصوص، وسيلة لاعلاء شأن عاصمته الجديدة على سائر المدن، واضفاء قدر من القدسية على حكمه باثبات أنه يستمد حكمه وقراراته من الله. ونتناول الروايات التي امتزجت فيها الأساطير مع الحقائق التاريخية أولا، ثم الحقائق التاريخية الواقعية التي على أساسها اختار قسطنطين موقع العاصمة.

أبدع الكتاب في وصف كيفية تأسيس مدينة القسطنطينية وربطها بالارادة الالهية، لتكون هذه المدينة حامية للمسيحية، وامتزجت الحقائق التاريخية بالخيال الخصب في سرد الأحداث، إذ تقول الروايات أنه بعد أن تخلص قنسطنطين من خصمه ليسنيوس واستقرت له الأمور، بات ليلته في بيزنطة ليعاود الرحيل صباحا، وفي نومه رأى مدينة بيزنطة بحصونها المتهالكة وأسوارها المهدمة في شكل سيدة عجوز ضعيفة تتقدم نحوه وتمد يدها وكأنها تطلب منه مد يد المساعدة لها ومعاونتها على النهوض، فما كان منه إلا أن تقدم منها، وكان يرفع راية الجيش الامبراطوري التي تحمل اسم السيد المسيح، فاقترب من العجوز ووضع الراية على كتفيها، فتحولت العجوز في الحال إلى فتاة قوية البنية، رائعة الحسن.

وقد فسر المحيطون بقسطنطين ما قصه عليهم كل حسب عقيدته، ففسرها الوثنيون بأن الربة القائمة على حراسة مدينة بيزنطة تدعوه لتجديد المدينة والاهتمام بها، ولذلك ظهرت له في منامه تمد يدها تطلب منه المساعدة، فلما ساعدها تحولت إلى صبية جميلة قوية، أما المسيحيون فقد فسروا رؤية قسطنطين بأن الله الواحد يدعوه أن يتخذ من مدينة بيزنطة عاصمة جديدة للامبراطورية، ويبشره بأنها ستصبح عاصمة قوية وتحمل راية المسيحية، وفي هذه الرؤية اشارة من الله بذلك عندما جعل قسطنطين يضع على كتفيها راية الجيش التي تحمل اسم السيد المسيح، فكأنها تحمل على كتفيها راية المسيحية وتتحمل مهمة حماية

المسيحية ونصرتها، ولذلك عليه أن يجددها ويهتم بها، لتصبح قادرة على تحمل تلك المسئولية الجسيمة، وبذلك أصبح بناء المدينة الجديدة مطلب شعبي من المسيحيين والوثنيين على حد سواء.

هذا عن اختيار مدينة بيزنطة، وتستمر الأسطورة في سرد تفاصيل بناء المدينة، وتقول أن قسطنطين امتثل لارادة الاله، وحمل رمحه حسب التقاليد الامبراطورية القديمة عند بناء المدن، وسار وبصحبته حاشيته وهو يرسم خطا على الأرض برمحه، وكلما استوقفه رجاله أبى أن يتوقف قائلا، عندما يقف هذا الذي يسير أمامي سأتوقف، في اشارة منه إلى أن هناك ملاك خفي يسير أمامه ويقوده للتقدم، وأنه لا يتحرك بارادته وإنما ارادة الله هي التي تحركه. ويقال أنه استمر يرسم برمحه خطا من ساحل بحر مرمرة، مارا بالتقاء القرن الذهبي مع البوسفور، ثم اتجه شمالا، فأصبحت المدينة أقرب إلى مثلث، له ضلعان ساحليان، والضلع الثالث بري هو الذي رسمه قسطنطين برمحه، وعند هذا الحد توقف الامبراطور وقال لرجاله لقد توقف دليلي، وأمر باقامة سور المدينة على الخط الذي رسمه برمحه، وشاع بين الناس أن قوى روحية كانت تقود الامبراطور لتخطيط المدينة.

هذا بشأن الأساطير والمعجزات التي تداولها المؤرخون حول تأسيس مدينة القسطنطينية، ولا يُستبعد أن يكون قسطنطين هو الذي قام بكل ذلك وألف هذه الروايات، وكان هدفه من وراء ذلك أن ينال التشجيع والدعم الشعبي على بناء عاصمته الجديدة والانتقال إليها، وأن تكون تلك الرؤى والأحداث دعما له إذا وجد معارضة سياسية من الطبقة الارستقراطية في استبدال روما بالعاصمة الجديدة، أما بالنسبة للأسباب الواقعية لاختيار قسطنطين لموقع المدينة، فهذا يتطلب العودة لتاريخ نشأة مدينة بيزنطة، وكيف ومتى لفتت انتباه قسطنطين لكي يتخذها عاصمة للامبراطورية، وتتناول المحاضرة نشأة بيزنطة باختصار.

مدينة بيزنطة قبل عهد قسطنطين

يعود التاريخ القديم لمدينة بيزنطة إلى القرن السابع قبل الميلاد حين أسسها مجموعة من البحارة المغامرين ينتسبون لمدينة ميجارا اليونانية ضمن حركة التوسعات اليونانية وانشاء المستعمرات، ولا يخلو الأمر من تدخل الأساطير في نشأة المدينة شأنها شأن الأساطير التي قامت حول نشأة أغلب المدن القديمة، فتذكر الروايات أن قائد مجموعة من المغامرين ويدعى بيزاس، كان ابن لملك مدينة ميجارا وحفيد أحد ملوك الأساطير اليونانية القديمة، وان والده الملك دخل في صراع طويل مع جيرانه وأنتهى الأمر بقتله على يد أحد منافسه الذي قرر القضاء على كل أفراد أسرة ملك ميجارا، فسارع ابنه بالرحيل مع مجموعة من الأصدقاء للبحث عن مكان آمن لا يصل إليه قاتل والده، فوقع اختيارهم على قرية صغيرة مهجورة لا تقف عندها السفن بسبب كثرة الأعاصير وتقلبات الأحوال البحرية على شواطئها، فوجدوها مناسبة للاحتماء بها، فنزلوا بها واستعمروها وتوجوا بيزاس ملكا عليهم، واتخذت المدينة اسم بيزاس، فاصبحت تسمى بيزانتيوم التي تحولت مع الوقت إلى بيزنطة، وعمل السكان الجدد للمدينة على اعمارها وتشييد الحصون بها وتحكموا في حركة السفن المارة بها وفرضوا عليها الرسوم الجمركية.

أما ما وجه نظر قسطنطين نحو مدينة بيزنطة بالتحديد، فقد حدث ذلك أثناء خوضه الحرب ضد خصمه ليسنيوس؛ فقد كان ليسنيوس على علم بمميزات مدينة بيزنطة وعيوبها وصعوبة تعقب اللاجئين إليها، فاتجه إليها وتمكن من النزول بها بقواته وبنى بها حصنا واتخذها قاعدة عسكرية لتجميع قواته وشن الهجوم على قوات قنسطنطين من آن لآخر، ولم يتمكن قنسطنطين في بادىء الأمر من السيطرة على

الموقف، وكاد أن يتعرض للهزيمة بسبب صعوبة الوصول لقاعدة خصمه العسكرية، إلى أن واتته الفرصة وتمكن من القضاء على اسطول ليسنيوس بالقرب من مضيق الدردنيل، ثم توجه على الفور إلى بيزنطة، ودمر الحصن الذي بناه ليسنيوس والقاعدة العسكرية التي أقامها، وأدرك قسطنطين في ذلك الوقت أن هذا الموقع الحصين الذي يصعب الوصول إليه والسيطرة عليه هو غايته المنشودة وهو المكان الأنسب لاقامة عاصمة قوية حصينة، تستطيع الوقوف في مواجهة الخصوم والتصدي للأعداء، خاصة إذا زاد من حصانتها بسور قوي يحمي حدودها البرية.

ظهرت إذا حصانة مدينة بيزنطة من خلال حروب قسطنطين وليسنيوس، ولم يخف على قسطنطين ما للمدينة من مميزات أخرى، فهي بحكم موقعها المميز تتحكم في مرور السفن وتحصل من ذلك رسوم جمركية كبيرة، وتتحكم في الطرق البرية والبحرية للتجارة بين آسيا وأوربا، إلى غير ذلك من المميزات، فأمر قسطنطين عام 324م في أغلب الروايات ببناء المدينة وتخطيطها على غرار مدينة روما واستعان على اتمام بنائها بالأموال التي صادرها من أسرة ليسنيوس، واستعان في بنائها بنحو أربعين ألفا من رجال القوط الذين دخلوا في خدمة الامبراطورية، واستمر بناء المدينة وتجهيزها نحو ست سنوات من العمل المستمر، حتى خرجت بالشكل الذي يرضى عنه قسطنطين لتكون أجمل مدن العالم في حينها، وتم تدشينها عاصمة للامبراطورية في 11 مايو عام 330م، ومنح قسطنطين مدينته الجديدة على الفور جميع الإمتيازات التي كانت تقدم لمدينة روما من قبل، وأمر بتحويل ضريبة القمح المصري إلى القسطنطينية.

سارت جميع اصلاحات قسطنطين في خطوط متوازية، لضمان إستقرار الإمبراطورية، وجد قسطنطين أن الاستقرار السياسي للامبراطورية وضمان وحدتها، مرهون باستقرار الكنيسة وطرح الخلافات الدينية، **وكان النزاع الديني قد احتدم بين كل من آريوس واثناسيوس**، وتحمس كل منهما لمذهبه الديني، وانتقل هذا الحماس لأتباعهما، حتى تعصب كل فريق لمذهبه وعادا الفرق الآخر، وهنا وجد قسطنطين أن واجبه فض النزاع بين الزعيمين الدينيين، فقد انتقل النزاع إلى المواطنين وأثر بدرجة كبيرة على الحياة الإجتماعية، والعلاقات بين الأفراد، إذ بلغ الأمر أنه داخل الأسرة الواحدة، اعتنق بعض أفراد الأسرة المسيحية على مذهب آريوس، بينما اقتنع آخر بمذهب أثناسيوس، فوجه الدعوة لرجال الدين في كل أنحاء الإمبراطورية، للإجتماع في مدينة نيقية عام 325م، ، لوضع حد للنزاع بين الطرفين، ذلك الإجتماع الذي عرف **بمجمع نيقية الأول**، واستجاب للدعوة عدد كبير من رجال الدين من مختلف أنحاء الإمبراطورية، ورأس قسطنطين بنفسه المجمع، رغم أنه كان مازال على وثنيته، وفي ذلك دلالة كبيرة على نجاح قسطنطين في تحقيق هدفه بتنظيم العلاقة بين الإمبراطور والسلطة الدينية، ورفع منصب الامبراطور على منصب البطريرك، وأصبح من عادة الأباطرة رئاسة المجامع الدينية، وعرف هذا التجمع الكبير بمجمع نيقية، وأصبح عقد المجامع الدينية سنة سار عليها بابوات الكنيسة فيما بعد، فكلما احتدمت المشكلات المتعلقة بالكنيسة، يقوم البابا بدعوة المجمع الديني للإنعقاد، ورغم عدم اعتناق قسطنطين للمسيحية، إلا أنه ناقش المسائل الدينية مع الحاضرين، وتدخل في القرارات، وأنتهي قرار الحضور على أدانة آريوس، وبطلان مذهبه.

ودعم مجمع نيقية موقف قسطنطين لدي الهيئة الدينية، خاصة مع الانتشار السريع للمسيحية في الإمبراطورية، كما أن الإصلاحات الداخلية التي قام بها، والانتصار على الفرنجة وغيرهم من العناصر المتبربرة، منحته ثقة المواطنين، غير أن المصادر المعاصرة تصف قسطنطين بأن يديه ملوثة بدماء

الأبرياء، ويرجع ذلك إلى قتله ابنه الأكبر كريسبوس من زواجه الأول، في محاكمة سريعة لم يسمح فيها لكريسبوس بالدفاع عن نفسه، ويقال أن زوجته الثانية فاوستا هي التي وشت بكرسبوس لإغارة صدر قسطنطين عليه، حتى يتخلص منه ويخلو العرش لأحد ابنائها الثلاث، ويذكر بعض المؤرخين، أن تلك الوشاية قابلت هوى في نفس قسطنطين، الذي تملكته الغيرة من تفوق الحربي لابنه، الذي استطاع أن يحقق عدة انتصارات سريعة على البرابرة، ومكن قسطنطين من هزيمة ليسنيوس، حتى أن قسطنطين خشي على نفسه من تفوق ابنه، فخاف أن يتمرد الجنود ويقوموا بخلعه وتعيين كريسبوس امبراطورا.

وكانت هيلانة والدة قسطنطين على علم بما دبرته فاوستا، فقصت على قسطنطين كل ما عرفت، فندم وانتقم منها بقتلها على الفور، إلى جانب أن قسطنطين قتل عدد من اصدقائه المقربين من القادة العسكريين، خوفا من قيام أحدهم بحركة تمرد والاستيلاء على العرش.

وقبل وفاة قسطنطين ندم كثير على هذا العدد الكبير الذي قتله من المقربين إليه، وقرر أن يقسم الامبراطورية بين ابنائه الثلاث **قسطنطين وقسطنطيوس وقنستانز**، تعويضا لهم عن قتلهم والدتهم في طفولتهم، ومنحهم جميعا لقب قيصر.

وبالفعل، بعد وفاة قسطنطين عام 337م، انتقل الحكم إلى الأبناء الثلاث، الذين اقتسموا الإمبراطورية، وبدأ عهدهم مثل عهد أبيهم بالدموية والقتل، فقتلوا أعمامهم وابناء عمومتهم، وعدد كبير من الأقارب، ثم بدأ الصراع بينهم، كل منهم طامع فيما بحوزة الآخر من أقاليم، وسرعان ما مات قسطنطين، وتوزعت ممتلكاته بين أخويه قسطنطيوس وقنستانز، ولم يهدأ الصراع بينهما، خاصة أن كل منها اعتنق المسيحية على مذهب مختلف، فاعتنق قسطنطيوس المسيحية على مذهب آريوس، بينما اتبع قنستانز قرارات مجمع نيقيا، ورغم المنافسة بين الأخوين، إلا أنهما حاربا في أكثر من جهة، حيث اشتدت هجمات الفرس منذ عام 337م على المناطق الشرقية، بينما لم يتوقف الجرمان عن مهاجمة المناطق الغربية.

وما لبث قنستانز أن توفي عام 351م، وعادت الإمبراطورية من جديد موحدة تحت **حكم قسطنطيوس**، الذي عمل بجد على اتمام مباني القسطنطينية التي لم تكتمل في عهد قسطنطين، وأهتم بالثقافة والتعليم، وأنقذ ما بقي من مكتبة الاسكندرية ونقلها إلى القسطنطينية، وسار على نهج والده، فسارت جميع الإصلاحات في خطوط متوازية، ولم يغفل الإهتمام بتأمين الحدود، ومحاربة العناصر الدخيلة، فقد زادت هجمات العناصر البربرية، وتوغل الفرنجة في بلاد الغال، وكان قسطنطيوس في حاجة إلى أحد المقربين يوكل إليه قيادة القوات في بلاد الغال دون أن يخشى تمرده، فلم يجد من بين أقاربه سوى جالوس ابن عمه الذي نجى من القتل لأنه كان معتل الصحة، ولا يخشى منافسته على العرش، وشقيقه جوليان، الذي لم يقتل مع أفراد اسرته لصغر سنه، إذ لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره، فرق له قلب قسطنطيوس وأمر بعدم قتله، فزوجه قسطنطيوس من شقيقته، ومنحه لقب قيصر، إذ أن قسطنطيوس لم ينجب وليا للعهد، وأوكل إليه أمر حماية الإمبراطورية من هجمات الفرنج.

استطاع جوليان أن يحقق انتصارات واسعة على الفرنج، وعينه قسطنطيوس حاكما على بلاد الغال، فأعاد إليها الإستقرار، وأصلح الأحوال الإقتصادية، وخفض الضرائب، وتتبع الفاسدين، ولذلك حقد عليه البعض، ووشوا به عند قسطنطيوس متهمينه بأنه يخطط للإستيلاء على عرش الإمبراطورية، وقبل أن ينزل قسطنطيوس عقابه على ابن عمه، أصيب بحمى وتوفي عام 361م.

خلف **جوليان** قسطنطيوس على عرش الإمبراطورية، واختلف جوليان كثيرا عن قسطنطين وأبنائه، إذ لم يكن يميل للعنف وسفك الدماء، الذي اشتهرت به أسرة قسطنطين، وربما يعود ذلك لظروف تنشئته، والتي كان لها دور كبير في تشكيل شخصيته ومعتقداته، فمذ طفولته المبكرة، يسمع من شقيقه والمحيطين به عن كيفية تخلص قسطنطيوس من أفراد أسرته، حتى شقيقه جالوس الذي لم يقتل مع أفراد الأسرة بسبب مرضه، قتل في محاكمة صورية على يد قسطنطيوس وفي حضرة شقيقه جوليان، إذ كان قسطنطيوس قد عين جالوس حاكما على أنطاكية، ويبدو أن جالوس أثبت جدارة عسكرية وسياسية أدت إلى تخوف قسطنطيوس من محبة الجنود والمواطنين له، فخشي أن يطمع في العرش، فتخلص منه بالقتل بتهمة تدبير مؤامرة للإنقلاب على الإمبراطور، وهي كانت تهمة تستوجب القتل.

ولم يسلم جوليان نفسه من التعرض للأذى، فكان لزوجة قسطنطيوس دور كبير في حرمانه من الأبناء، ثم كان وفاة زوجته بسبب تعرضها للإجهاض المتكرر، فكان لكل هذه الحوادث أثرها في انفصاله بقلبه عن الديانة المسيحية التي اعتنقتها أسرته، وولد عليها، خاصة وأنه أرسل منذ طفولته إلى أثينا لتلقي العلم هناك على يد أشهر المعلمين الفلاسفة، الذين كانوا على وثنيتهم، فتشبع بأخلاقهم الطيبة، وبدأ وهو في بداية شبابه يقارن بين الأعمال الوحشية التي يقوم بها الأباطرة أبناء عمه قسطنطين الذين اعتنقوا المسيحية، وبين سلوك معلميه الوثنيين والمباديء التي تنادي بها الفلسفة، فمال للوثنية.

وبمجرد اعتلاء جوليان عرش الإمبراطورية، أمر باعادة جميع حقوق المعابد الوثنية التي كانت منعها قسطنطيوس، وأعاد الوثنيين لوظائفهم وسمح لهم بممارسة الشعائر، وحاول جاهد اصلاح الوثنية، فأخذ من المسيحية بعض المباديء وحاول تطبيقها على الوثنية، وأدخل الموسيقى والترانيم على الطقوس الوثنية في الصلاة، أما بالنسبة لأتباع مذهب نيقية الذين حرمهم قسطنطيوس من حقوقهم، فقد ساواهم في الحقوق بالأريوسيين، غير أنه منع المسيحيين من تدريس الفلسفة والبلاغة والأدب، وجعل هذه العلوم قاصرة على الوثنيين، وأجبر المسيحيين في جميع الأقاليم على رد جميع الممتلكات التي صادرها قسطنطيوس من الوثنيين ومن أتباع مذهب نيقية، وأجاز هدم الكنائس التي كانت معابد وثنية، وردها إلى الوثنيين، وكان هذا التصريح سببا في فوضى عارمة داخل الإمبراطورية، إذ هاجم الوثنيون الكنائس وأهانوا المسيحيين، وانتهي باشتباكات عنيفة بين المسيحيين والوثنيين، عوقب بعدها المسيحيين أشد العقاب، بينما تغاضى الإمبراطور عما قام به الوثنيون.

على جانب آخر أهتم جوليان بالثقافة، وقام بزيادة رقعة المكتبة التي أسسها قسطنطيوس، وأضاف لها آلاف الكتب، ودعا المواطنين بجميع دياناتهم لنبذ الخلافات والعنف، ومحاولة العيش في سلام، كما أهتم جوليان بحماية حدود الامبراطورية من الفرس والجرمان، وأقام الحصون وأصلح الأسوار، وأهتم باصلاح أحوال الجيش، حتى يغزو به بلاد الفرس، وأصلح أحوال البلاد الإقتصادية، وقام بمصادرة أموال بعض التجار الذين كانوا يغالون في تجارتهم، وعندما استقرت أحوال البلاد الداخلية، قرر جوليان الخروج على رأس قواته لمحاربة الفرس، وبالفعل أحرز انتصارات كبيرة على الفرس في البداية، مما اضطرهم للتقهقر والفرار داخل حدود دولتهم، غير أن الملك الفارسي شابور الثاني أعد خطة جيدة، استدرج بها جوليان وقواته إلى داخل الصحراء، وانتصر الفرس بعد أن ضرب جوليان بحربة في جنبه.

(يقال أن الذي تمكن من جوليان وضربه جندي مسيحي من جيشه، انتقاما منه لإعادته الوثنية من جديد)

وكان الجيش في حاجة لقيادة سريعة تخرجه من هذا المأذق، فاختار قادة الجيش **جوفيان** قائد الحرس الإمبراطوري، وأعلنوه امبراطور، وسرعان ما عقد جوفيان صلحا مع الفرس حتى يتمكن بالعودة بما بقي من الجنود إلى بلاده، واضطر لقبول الصلح بشروط مهينة، تنازل فيها للفرس عن عدد كبير من المدن الهامة، وعاد إلى القسطنطينية، وكان أول أهتماماته أن ينتصر للمسيحية، ولم يجر جوفيان اصلاحات كبيرة في الامبراطورية، إذ توفي بعد حوالي ثمانية أشهر من توليه العرش، ولا يذكر له إلا إعادة رمز السيد المسيح إلى راية الجيش الإمبراطوري، وكان جوليان قد أمر بإلغاء رمز المسيح من راية الجيش وجميع الأماكن العامة بالإمبراطورية.

تولى **فالنتيان** العرش، واعترض قادة الجيش على توليه منفردا، فاختار شقيقه **فالنز** ليحكم معه، فاستقر فالنز في الشرق وكان أريوسي المذهب، واستقر فالنتيان في الغرب وكان يتبع مذهب نيقيا، مما أدي للشقاق بين الأخوين، إلا أنهما اجتهدا لحماية الإمبراطورية، فتولى فالنز الجبهة الشرقية لحمايتها من الفرس، وخاض فالنتيان الصراع في الغرب، لحماية الإمبراطورية من العناصر الجرمانية التي اشدت هجماتها على الغرب الأوروبي، وكذلك اهتم بحماية شمال أفريقيا، إلا أن فالنتيان مات في 375م، فضم فالنز الجزء الغربي وحكم الإمبراطورية منفردا.

وكانت بعض الجماعات الجرمانية وهم القوط، قد اعتنقوا المسيحية على مذهب آريوس الذي يعتنقه فالنز، مما شجع الإمبراطور على الترحيب بنزولهم في أراضي الإمبراطورية، فسمح لهم بعبور الدانوب إلى أوربا، غير أنهم كانوا يطمعون في استيطان القسطنطينية، فتقدموا نحوها، مما اذعج الإمبراطور، فقرر التحرك لملاقاتهم والقضاء عليهم، فاتجه نحو أدرنة لوقف زحفهم نحو القسطنطينية، إلا أنه لقي هناك هزيمة كبيرة وقتل في المعركة (معركة أدرنة) عام 378م.